الفلسفة الماركسية

في الاجتماع والسياسة والاقتصاد

لعلي أدهم

الشيوعية مذهب في الاقتصاد وخطة في السياسة وعقيدة فلسفية تدين بها في العصر الحاضر دولة عتيدة كثيرة السكان مترامية الاطراف ، وتحاول تثبيت قواعدها وبسط سلطانها ، ولا معدى لنا اذا حاولنا ان نعرف طبيعة العصر الحاضر ونلم بمشكلاته البارزة وسياساته المتعارضة من ان نختبر في نزاهة ودقة نظامها ودعاويها واتجاهاتها ووعودها ، وقد يتراءى لبعض ان الكتابة عنها تزيدها انتشاراً وتأييداً ولكني لا ارى صواب هذا الرأي ، ولو جاريناه القائلين به لأمسكنا عن دراسة الكثير من مسائل الفكر ومذاهب الفلسفة ، وفي الشيوعية كما في سائر المذاهب الفلسفية جوانب صادقة وبها كذلك جوانب من النقص والزيف والباطل ، وبين دعاتها رجال خلقوا من طينة البطولة واخلصوا في سبيل عقيدتهم ألم التشريد والنفي وغصاصة الحاجة ومرارة الحرمان ولكن اصدق الناس اخلاصاً واصفاهم نية قد يقع في الخطأ ويتصور المحال ، وكثير من الآراء التي شقيت من جرائها الانسانية لم تصدر عن أشرار الناس وانما أذاعها قوم لا سبيل الى الشك في صدق سريرتهم ، والشيوعية ترى قلب النظام الاجتماعي وترى الحالة الحاضرة ظالمة فاتكة وانها ستفضي بالعالم الى الفوضى وتؤدي به الى الخراب والدمار فهي اذن امر خطير يستوجب الروية وامعان النظر ، وليس من الحق ان نفرض ضرورة بقاء النظام الحالي وامتناعه على التغير فالتاريخ كله حركة تحوُّل مستمرة ولكنهُ في نفس الوقت ليس سلسلة انقلابات مفاجئة وثورات طارئة وانما هو حركة تطور تدر فيها الثورة

والشيوعية مثل الفاشية تحاول التوفيق بين السياسة والاخلاق وهي تفسير خاص للحياة وطبيعة الوجود وهي تتضمن نظرية للمعرفة وفلسفة للتاريخ

والشيوعية من حيث هي نظرية متماسكة ومذهب فلسفي كان يطلق عليها في اول امرها اسم « المادية الجدلية » وتشير هذه التسمية الى تفرعها من فلسفة هجل ، ويذهب هجل الى ان تقدم الفكر وسائر الاشياء انما ينشأ من الصراع بين العناصر المختلفة المتناقضة ، ولنظريته جانبان فهي من جانب تصف الطريق الذي اجتازته الاشياء الى الوجود . ومن جانب آخر تصف السبيل الذي ينبغي سلوكه

اذا اردنا الخلوص الى حقائق الاشياء ويرى هجل ان العمليتين عملية تقدم الاشياء وعلمها وعملية الاهتداء الى الحق — يكونان جانبين مختلفين لحقيقة الواحدة ، وكارل ماركس يرى اسبقية الجانب الاول ولكن هجل يعزو الاسبقية الى الجانب الثاني . وكل نزعة من النزعات في ابان انتصارها تعمل على خلق نزعة معادية لها ولا تزال هذه النزعة الجديدة تشتد وتقوى حتى تتغلب عليها وتحليها عن الميدان ، ومن أمثلة ذلك النزعة الفردية في القرن التاسع عشر فقد بلغت القمة وأوفت على الكمال ولكن انتصارها الباهر كان مبدأ الى خلق النزعة الاجتماعية التي قاومتها وقضت على نفوذها

وكان هجل يعتقد ان القوة الدافعة في هذه العملية قوة فكرية صرفة ولكن ماركس أنكر عليه ذلك لأنهُ بمادئه النسبية كان يرى ان الافكار ان لم تكن أفكاراً صادرة من عقول خاصة فهي اوهام عديمة القيمة . وكان يتمسك بالنظرية المادية التي ترى ان الافكار نفسها تتكون من تأثير البيئة وانعكاساتها ، والافكار التي تقوم بالعقل انما منشؤها الاحداث والحركات التي تعرض في العالم خارج العقل ، فكوائن العالم العضوي هي التي تخلق الحوادث في عقل الانسان ومن ثم تخلق الحركة التي تسميها « التاريخ » وعقل الانسان جزء من هذه الحركة ولكنهُ ليس هو المبتكر لها

ويمزج ماركس مذهب المادي بطريقة هجل الجدلية ويستخرج من هذا المزيج تفسيره للتاريخ وتعليله لحوادثه . وملخص نظريته ان الحوادث تنشأ من الصراع بين النزعات المتباينة ، ويمكننا ان نصل الى لباب التاريخ بفهم النزعتين المتصارعتين ، وكما أننا في عالم الفكر اذا اتقنا أثر نزعة من النزعات لا مفر لنا من الانتهاء الى نقيضها فكذلك في عالم الواقع يقتضي نجاح نزعة من النزعات ظهور النزعة المناوئة لها فنظام الاقطاع مهد السبيل لظهور الرأسمالية ، والنظام الرأسمالي يوحي الى الطبقات الفقيرة الشعور بالتفاوت بين الطبقات وبذلك يطبع السلاح الذي يحارب به ويملي للقوة التي تقضي عليه ، والقوة الدافعة وراء العملية الجدلية — في زعم ماركس — ليست عقلية وانما هي حادثة طبيعية مادية ، وليست ارادات الناس ولا أفكارهم هي التي تغير وجه التاريخ وتحمل على اتجاهاته . وانما هي الفواعل الطبيعية وتكشف المواد الخام ومبتكرات الصناعة ، ولما كانت فكرة الاختراعات وتأثيرها البعيد في الفنون والصناعات قد تظهر قوة الفكر الانساني في توجيه الحوادث وصياغة التاريخ لذلك عني ماركس بأن يوضح أن الاختراعات لا تنشأ من عقل المبتكر تامة التكوين ناهضة الجناح وان ما يبتكره الناس في الواقع لا يبتكرونهُ من تلقاء أنفسهم وبتفكيرهم الفردي وانما يمهد لهم سبيله ويذلل لهم عصيه طبيعة المشكلات التي تستقلهم بها الظروف المطيفة بهم والأحوال العارضة لهم وفضلاً عن ذلك فان طوارىء العصر وبوادر الأحوال هي التي تحمل الاختراع وتهله او تذبحه وتملي شأنه وتعمل على اصلاح عيوبه واستكمال نقصه

ويرى ماركس ان أساس المجتمع قائم على انتاج الوسائل التي تصون الحياة البشرية وتدفع عنها غوائل الحاجة وتوزيع ذلك الانتاج انقسام المجتمع الى طبقات أساسه طريقة توزيع

الانتاج والاسباب النهائية لكل التغيرات الاجتماعية والثورات السياسية لا يبحث عنها في عقل الانسان واهتدائه الى الحقائق الخالدة وادراكه للعدالة وانما في تغير اساليب الانتاج والمبادلة ولا تلتمس في فلسفة العصر رايا في اقتصادياته فاذا اصبح باطلا ما كان يراه الناس حقا وصار ظلما ما كان يراه الناس عدلا فانما سبب ذلك التغيرات الصامتة التي تطرأ على طرائق التوزيع والانتاج وتجعلها نافرة من النظام الاجتماعي السائد الذي يرتكز على اسس اقتصادية قد غيرها التغير وهذا التنافر الذي يؤدي الى نسخ نظام المجتمع وتعديل اسسه ليس وليد الذهن او سليل الرغبات الانسانية وانما مصدره الانتاج وهو مسألة ليست مستقرة في عقولنا وانما هي قائمة خارج عقولنا ومستقلة عن ارادتنا واعمالنا والاشتراكية الحديثة ان هي الا انعكاس هذا الصراع في العقول

ومقومات الحياة الثقافية وخصائص المجتمع الاخلاقية والدينية واتجاهاته الفانونية والفنية جميعها في رأي الشيوعية مشتقة من الاصول الاقتصادية ، وادوار التاريخ المتعاقبة منشؤها صراع الطبقات والطبقات المتصارعة نتيجة الاحوال الاقتصادية

وعلى هذا النمط من تحليل بناء المجتمع وعناصر تكوينه وتفسير التاريخ تقوم الافكار الشيوعية وترتكز اسس المذهب ومن مبادئها تتفرع فروعه وتطرد احكامه

والانسان لاجل ان يحصل على القوت الذي يقيم اوده ويستحضر الثياب التي تقيه طوارىء الجو وتقلباته قد تعوّد ان يتناول المواد الخام ويختال فيها حيلته ويعمل فيها فكره لتواتي حاجته وتفي بمطالبه وتشبع غرائزه ومن ثم نشأ علاقة بين الانسان وبين الاشياء وهذه العلاقة بضرورة الحال تتضمن كذلك العلاقة بين الانسان والانسان لان طبيعة تناول تلك المواد تستلزم التخصص وتوزيع العمل وعلى مدى الايام ينهض في آثار ذلك حقوق وامتيازات يدعيها بعض القوم ليتفردوا باستغلال بعض الاشياء ويذودون عنها الغير ومن هنا نشأ الملكية من ناحية والحرمان من ناحية اخرى ، ويرى الماركسيون ان الاشخاص المجردين من حقوق الملكية يمكن استخدامهم في الاستغلال تحت اشرافهم ورقابتهم لقاء اجر زهيد يدفعونه لهم وقد نشأت من اساليب الاستغلال تلك الصور المختلفة في معاملة الانسان للانسان ، وتلمح من ذلك ان العلاقة بين الناس في مختلف العصور قائمة على اسلوب تلك الاشياء وطريقة تناولها وصنعها وقد ظلت تلك العلاقة طوال العصور المتعاقبة ثابتة في جوهرها . ومن جرائها انقسم المجتمع الى فريقين كبيرين يتبادلان العداوة والبغضاء ، وعلاقة الاستغلال ولو انها لم تتغير في الجوهر ولكنها مع ذلك قد اتخذت صوراً متعددة ويميز كارل ماركس من بينها ثلاثة انواع رئيسية حدثت في تطور المجتمع التاريخي فهناك الاستغلال الذي اتخذ صورة الرق والاستعباد . وهناك استغلال عهد الاقطاع وقد تلتها صورة الاستغلال في عهد الرأسمالية والاستغلال ظاهر الظهور كله في الصورتين المتقدمتين سواء في علاقة العبد بسيده او الامير الاقطاعي برعيته وفي العصر الرأسمالي ظلت العلاقة

واحدة في الجوهر ولكن يختلف أثرها ويختلف من وقتها بين المنتجات لا استعمالها المباشر ووجود الوسطاء بين المنتج والمستهلك وذيوع الحرية السياسية وسيرون البادىء الديموقراطية وتقدم الجماعات رهن بتغير العلاقة بين الانسان والاشياء او بنمط آخر يتوقف تقدمها على الاسلوب الذي يتناول به الانسان المواد الخام ويحيلها سلعاً تمض حاجته وتكفل بمطالبه ومن آونة لاخرى تنبع في عالم الصناعة مستحدثات تبتدع صوراً جديدة في المجتمع وكلما سمت الاختراعات في معارج الرقي وكبر نصيب الناس من البراعة الصناعية واستفاضت المعرفة واستثارت الافكار استلزم ذلك صوراً جديدة للنظام الاقتصادي

وسن الآداب وقواعد السلوك وشرائع القوانين في مختلف المجتمعات تم على حقيقة النظام الاقتصادي السائد لانها انشأت تبعاً لحاجات الطبقات المتحكمة المستغلة وهي ترمي من ورائها الى تحبيذ العلاقة الخاصة بين الطبقتين وتسويغ استغلال احدى الطبقتين للطبقة الاخرى ، وجميع النظم السياسية ومذاهب التشريع مرتبطة بالنظام الاقتصادي فهي ثمرته ومرآته معاً ، وقد كانت العبودية مباحة ومعترفاً بها في المجتمعات التي كانت تستغل العبيد ومن ثم يرى ماركس ان ركون الطبقات المستغلة الى التماس الحق وتعويلها على تشدان العدالة امر لا غناء فيه ولا رجاء في مخايله لان تلك العدالة المنشودة قائمة على افتراض صحة النظام الذي يثورون به ويحتجون على مثليه وليس هناك عدل مطلق ولا حق مجرد — كما يرى ماركس — وانما هناك معايير للحق وتصورات للعدالة ومن بين تلك المعايير والتصورات ما يسوغ وجهاً خاصاً من وجوه التقدم الاقتصادي ويرى صلاحه ومطابقته للحق ومسايرته للعدالة

ويقف الشيوعيون من الدين موقفاً بعيداً عن الاعجاب والتقدير بل هم لا يحجمون عن مقاومته وشن الغارة عليه والعمل على تقويضه لأنه في عرفهم ضرب من ضروب المخدرات التي تراخي العزيمة وتثلم النشاط وتغري بالزهادة والاستسلام ، وهم يرون ان الطبقات المتمولة قد اتخذت الدين وسيلة من وسائلها التي تستعين بها على حشد عقول الطبقات الفقيرة بالأوهام والخرافات وتصرفها عن مجابهة الحقائق وادراك ما ينصب لها من الاشراك وما يحاك لها من الدسائس ويسترعي الشيوعيون النظر الى ما ورد في الكتب المقدسة عن تحبيذ القناعة ومدح التواضع والخشوع وذم الكبرياء والجبروت

ولنظر الشيوعيين الى الآداب والفنون وسائر ألوان الحياة الفكرية متأثر بمذهبهم في الاقتصاد والأدب عندهم لا ينظر اليه منفصلاً عن السياسة والاقتصاد لأن الأدب الحق في زعمهم هو الذي يزيد الحياة قوة ، ولما كانت حياة الانسان ممتزجة بحياة المجتمع وتقوية الحياة تتطلب تسهيل توزيع النشاط الانساني بحيث يثمر ثمرته المرجوة ولا يذهب عبثاً لذلك يرى الشيوعيون ان الأدب الذي ينمو عالقاً بأغصان شجرة الرأسمالية نمواً فضولياً هو أدب قليل النفعة زهيد

القيمة والأدب الجيد هو الذي يدعو الى زيادة الانتاج الانساني ويعاون العناصر التي تعمل لتحقيق ذلك فادته اذن الدعاية ودعايته متجهة الى محاولة التغيير للدفع خلق وقيما أدب الماضي هي في أنه يقدم لنا صوراً أمينة للظروف الماضية وأحوال الطبقات في العصور الخوالي والادب في العصر الحاضر يجب أن يعين على احداث الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية وهم يؤثرون الأدب القريب من لغة الشعب وتصوراته ولا يرتضون الروايات التي تدور حول حياة الافراد وانما يفضلون الروايات التي تصف صراع الطبقات لانها تمهد سبيل التقدم نحو الاشتراكية

ويرى الشيوعيون ان الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية لا يتم بالطرق السلمية ولا مناص فيه من اصطناع الشدة واستعمال العنف والقهر وذلك لان النظم السياسية والقانونية والأدبية القائمة على أساس اقتصادي خاص تولد في النفوس الرغبة في الدفاع عنها والاستبسال في سبيلها حتى عندما يكون ذلك الأساس الاقتصادي قد آذن بالسقوط وأشرف على الزوال ، وكل نظام سياسي قد منح طبقة خاصة حقوقاً تحرص عليها وتتمسك بها لا يمكن تعديله دون الاستهداف لمقاومة الطبقة المستمتعة بامتيازاته والمحتكرة لخيراته وهي تحاول ان تقنع الناس من طريق اشرافها على تربية النشء ان النظام الراهن كفيل بتحقيق العدالة وان الخير في بقائه وحياطته وهكذا يبقى النظام السياسي جامداً في حين ان الاختراعات الحديثة في عالم الانتاج قد جعلت الحاجة الى تغييره شديدة ملحة ويقع في روع الطبقات الفقيرة ان وسائل الاقناع واساليب الديمقراطية غير شافية ولا مقنعة وانهم مضطرون الى احداث الانقلاب بالقوة والصدام

ويرد الشيوعيون الحرب الكبرى الى اسباب اقتصادية وذلك ان قوى الانتاج كانت في تقدم مستمر وزيادة مطردة في حين ان النظام الاجتماعي الراهن ظل بغير تعديل وترتب على ذلك ان أثمان السلع ارتفعت الى حد لا يمكن المجتمع من استيعابها جميعها فاشتدت من جراء ذلك الحاجة الى المنافسة لفتح اسواق جديدة تحت ستار الاستعمار وانتج ذلك الحرب

وظهور قوة الطبقات الفقيرة له نظائر في التاريخ لأن كل طبقة استأثرت بالنفوذ استدعى وجودها ظهور طبقة مناوئة لها وهذه الطبقة تزحزحها في النهاية عن مكانها وتغتصب نفوذها ولكن اشتداد قوة الفقراء في العصر الحديث طراز فريد من الحركات الاجتماعية لان نزاع الطبقات في العصور السالفة كان يشبه تغلب طبقة على طبقة واما انتصار طبقة الفقراء في العصر الحديث فانها ستؤدي الى خلاص الانسانية وتقضي على نظام الطبقات وهذا هو مصدر قوة العقيدة الشيوعية لأن انصارها لا يعملون لتغليب طائفة وانما يعملون لتحرير الانسانية ويشعل هذا الاعتقاد حماسهم ويبعث في نفوسهم حب التضحية والتفاني في التبشير بالمبدأ وتدعيم العقيدة

ويرى الشيوعيون ان تحرير الانسانية والغاء الطبقات وازالة الفوارق الاجتماعية يستلزم فترة تمهيدية تستولي خلالها على أعنة الحكم ديكتاتورية جريئة لا تحجم عن استعمال القسوة

والارهاب توطيداً لمكانتها ودفاعاً عن حوزتها ومتى استقرت الاحوال وزال الخطر بطلت وظيفة الحكومة وانتهت مهمة الديكتاتورية

ويشك الشيوعيون في نجاح الديمقراطية لانها في عهد الرأسمالية لا يمكن الا ان تكون خيالاً لا حقيقة له ومهما كانت اكثرية الناس من الطبقات الفقيرة التي لا تملك شيئاً فمن العبث الكلام عن الحرية الفردية او قدرة الفرد على التأثير في نظام المجتمع الذي يعيش فيه، ولا حرية لمن لا يملك شيئاً ومهما تكن الحكومة ديمقراطية فان النفوذ سيظل في يد المسيطرين على القوى الاقتصادية لاستيلائهم على وسائل الانتاج الصناعي، ولا نزاع في انهُ مما يبعث الارتياح والسرور ان يباح للانسان حرية النقد والمناقشة ولكن الذين لا يتغذون تغذية صالحة او يرهقهم العمل المضني لا يرون في حق الاستمتاع بالنقد سوى نوع من الترف لا قبل لهم به ولا رغبة لهم في تذوقه لانهم احوج الى ملء بطونهم منهم الى تحريك ألسنتهم وما دام يتقصمهم الموت فهم زاهدون في الحرية، وحرية التفكير وحرية المناقشة والبحث والتعبير عن الرأي هي أنفس ذخائر الديمقراطية وأسطع آياتها ولكن الشيوعيين يشكون في وجودها وينكرون قيمتها وهم يرون ان الرأسمالية اذا اشتدت بها الازمة وعضتها الحاجة فانها لا تتردد في الغاء هذه الحرية الوهمية وتظهر على حقيقتها سافرة غير متوارية ويضربون لذلك مثل الفاشية في ايطاليا والنازية في المانيا والشيوعية في نظرهم هي وسيلة انقاذ الحضارة في هذا العصر المضطرب الجائش لأن الرأسمالية ستظل في كفاح عنيف وتظل دولها يصارع بعضها بعضاً صراعاً ينذر بأسوإ النتائج ويقوض العمران ويعصف بثمرات الحضارة

ولعل أقرب نقد يوجهُ الى الشيوعية هو قيامها على طريقة هجل الجدلية لأن هذه الطريقة صحيحة من ناحية المنطق وما وراء الطبيعة ولكن تطبيقها العملي على الشؤون الدنيوية والحوادث التاريخية لا يخلو من الاعتداء على الحقائق والاساءة الى التاريخ، وعند ما نعرض حوادث التاريخ نرى أنها لا تطابق تمام المطابقة الأسلوب الجدلي الذي يقول به هجل والتاريخ مزيج من الضرورة والحرية والنظام والمصادفة والعوامل الهامة الأساسية وكذلك الحوادث التافهة الزهيدة وتياراته مختلفة وعواصفه كثيرة فالطموح له أثره في توجيه التاريخ وكذلك الدسائس والغيرة والمسائل الجنسية والحماسة الدينية والهوسة المثالية ولا يمكن تجاهل اثر الأفراد البارزين الذين نسميهم « ابطال التاريخ » واخضاع التاريخ لعامل واحد يقتضي تجاهل الكثير من حقائقه والالتواء في تفسير حركاته وشؤون الحياة الانسانية ليست جميعها خاضعة للمنطق مترسمة لخطواته ولها ظلال مختلفة وملابسات كثيرة وتاريخ الانسانية يتوقف على كثير من المصادفات التي لو تغير بعضها لتغيرت قصة التاريخ واختلف سير الزمان ومسألة تنازل الديكتاتورية التي تنشأ عقب الثورة الشيوعية عن امتيازاتها وسلطاتها امر غير منظور ومن الصعب التسليم به والاعتقاد بصحته